بين الفصحى والعامية*

محاضرة

للأستاذ الدكتور شوقي ضيف

بسم الله الرحمن الرحيم

الزملاء المجمعيون:

سيداتي - سادتي:

الفصحى لهجة قريش في الجاهلية، ومن الصعب تحديد الزمن الذي اتخذت فيه شكلها النهائي الكامل من الإعراب والتصريف والاشتقاق . ومن المؤكد أنها لم تصل إلى صورتها النهائية في العصر الجاهلي الذي يمتد نحو قرن ونصف قبل الإسلام إلا بعد مراحل زمنية طويلة من النمو والتطور . وكان يعاصرها لهجات عربية جاهلية كثيرة في شمالى الجزيرة العربية وجنوبيها وفي نجد والحجاز غربا وحتى عمان والخليج العربي والفرات شرقا - وكان سكان كل هذه المناطق يتكلمون لهجات مختلفة، وشعروا في عمق بأن الدول الكبرى المحيطة بهم في الجاهلية تحاول فرض سيادتها على أجزاء كبيرة من ديارهم، ففي الجنوب الغربي فرض الأحباش سيادتهم على اليمن ، وفرض الروم سيادتهم على القبائل في الشمال الغربي ، بينما فرض الفرس سيادتهم على الحيرة والقبائل في الشرق .

وكان لمكة مكانة كبرى في نفوس عرب الجاهلية بسبب أنها كانت حارسة الكعبة بيت أصنامهم وعبادتهم الوثنية،وبسبب اقتصادي:إذ كانت قوافلها التجارية تجوب أنحاء الجزيرة العربية جنوبًا إلى اليمن وشمالاً إلى الشام وشرقًا إلى العراق والخليج العربي.وبسبب سياسي:أنها لم

---

*ألقيت هذه المحاضرة فى الجلسة الثانية من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الاثنين ٢٠من ذى القعدة سنة ١٤١٩هـ الموافق ٨ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩م .

تدن بالولاء والسيادة لدولة أجنبيـــة .
وكان العرب يجتمعـــون إليـــها فـــي
أعيادهـــا الوثنيـــة وفـــي أســـواقها ،
واشتهرت سوق عكاظ باجتماع خطباء
العرب وشعرائهم فيها، ومن أجل ذلك
كله تجمعت قلوب القبائل في الجزيـرة
العربيـــة حولـــها واتخذوهـــا رمـــز
استقلالهم عن الـــدول الكـــبرى مـــن
حولهم ،. وشعروا لها بـــولاء كبـــير
جعلهم يتخذون لهجتها لغة أدبية لـــهم ،
يخطب بها خطبـــاؤهم فـــي المواســـم
الكبرى ، وينظم بها شـــعراؤهم فـــي
الجاهلية أشعارهم . وما هذه اللـهجـــة
القرشية التي ســـادت بيـــن الشـــعراء
والخطباء العرب في الجاهلية إلا مـــا
سمى بعدُ باسم الفصحى ، وبها نـــزل
القرآن الكريم . على الرسول صلـــى
الله عليه وسلم ، وأخذ حِفْظُـــه كمـــا
أخذت تلاوته على ألســـنة المســـلمين
يُعمِّمان لغته الفصحى في جميع أقطار
الأرض شرقا حتـــى أســـوار الـــهند
والصين، وغربا حتى إسبانيا والمحيط
الأطلنطي . وقبل الفتـــوح الإســـلامية
كانت بيزنطة تســـيطر علـــى الشـــام
ومصر وتونس، وظلت لغتها اليونانيـة
لغة للحكام وإدارة تلك البلاد وثقافتـــها
الرسمية ولم تتغلغل إلى قلوب ســـكان
هذه الأنحاء، فظل سكانها يتكلمـــون
لغاتهم الخاصة على نحو مـــا كـــانت
مصر تتكلم القبطية، وحكمت رومـــا
الشمال الأفريقي وظلت لغتها اللاتينيـة
لغة للحكـــام وإدارة البـــلاد وثقافتـــها
الرسمية ولم تتغلغل إلى قلوب سكانها،
وظلـــوا يتكلمـــون لغتـــهم البربريـــة
الخاصة، أما الفـــرس فقـــد بـــارحت
الفارسية ألسنة أهلها وحلـــت محلـــها
الفصحى في جميع ديارها، على نحـــو
ما حدث في ديـــار الشـــام ومصـــر
والشمال الإفريقي جميعه، فقد أصبحت
شعوب كل تلـــك البـــلاد مـــن الـــهند
والصين إلى المحيط الأطلنطي شـــعوبًا
عربية تنطق بالفصحى ، وتعبر بـــها
عن ذات نفوسها ووجد أناتـــها أدبـــاً
وذات عقولها علومًا وفلسفة، فضـــلاً

عن اعتناق الكثرة من السكان لديـــن الإسلام وتعاليمه الروحية . وانضم إلى تلك الشعوب الإفريقية والآســيوية شطر من إسبانيا في الجنوب الغربـــي لأوربا، وهو المعروف باسم الأندلس.

وكل ذلـــك حـــدث لانتشـــار الفصحى في الألسنة بين سكان تلـــك البلدان جميعا دون أن تفرضها الدولـــة العربية أو الحاكم العربي على أي بلـد حكمه . وهو نفسه ما حدث لانتشـــار الإسلام في كل تلك الأنحاء إذ انتشـــر سريعا فيها دون أي محاولة من الدولة أو من حاكم لفرضه على الســـكان، إذ كان المسلمون وحكامـــهم يتمســـكون بحرية العقيدة الدينيـــة عمـــلا بقولـــه تعالى: (لا إكراه في الدين) فلم يُجْـبَرْ وثنى على الدخول في الإسلام فضـــلا عن شخص من أهل الكتاب، إذ كانوا يدخلون فيه طواعية لحسن تعاليمـــه ، كما دخلوا فـــي الفصحـــى لروعتـــها البيانية التي شغفوا بـــها، ويصـــور شغف الإيرانيين وسكان كـــل البـــلاد العربية التي هجرت لغاتها واتخـــذت الفصحى لسانا لها قول البيرونى معبرا عن مدى شـــغفه بـــها : لأن أهْجَـــى بالعربية خير لي وأمْتَعُ من أن أُمـــدح بالفارسية .

ولم يسبق فى التاريخ الإنساني للغة قديمة كبرى أن اتخذتها مجموعـــة شعوب كبيرة في قارات آسيا وإفريقيـــا وأوربا لغة لها : تنطق بها وتعبر عـــن ذات نفوسها وقلوبها وعقولـــــها كمـــا حدث للفصحى في ديارها وبولاياتـــها التي استوطنتها ، وهـــــى - بذلـــك - أصبحت لغة عالمية ذات قوة عظيمـــة قهرت بها كل ما لقيته من اللغـــات . ومنذ القرن الثاني الهجري / الثـــامن الميلادي تتمثل الفصحى كل ما كـــان لدى الهنود والفرس واليونان من ثقافة ويصبح لها في القرن الثاني الـــهجري عالم عالمي في الكيمياء هو جابر بـــن حيان ، ويصبح لها في النصـــف الأول من القـــرن الثـــالث الـــهجري عـــالم عـــالمي فـــي الرياضيـــات هـــــو الخوارزمي مبتكر علم الجبر، وكـــان يعاصره الكندي الفيلسوف الذي ابتكر

هو وخلفاؤه من فلاسفة العرب الفلسفة الإسلامية التي يمزجون فيها بين أفكار فلاسفة اليونان وروحانيـــة الإســلام مزجًا بديعًا، وينهض الطب عند محمد ابن زكريا الرازى بكشف الفروق بين مرض الجدري والحصبـــة ووضـــع الأسس للطب النفسي .

وتظل الفصحى قائدة وحاملـــة للعلوم والفلسفة وحدهـــا مـــن القـــرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي إلـــى القرن الثامن الهجري / الخامس عشـر الميلادي ، وهو ما جعل أوربا حيـــن أرادت أن تنهض علميًّا تبث في أبنائها حماسة قوية لتعلـــم الفصحـــى لغـــة الحضارة والعلم، وتعلموها، ومضـــوا ينقلون ما تحمل مـــن كنـــوز العلـــم والمعرفة والحضارة إلى اللغة اللاتينية لغة العلم في ديارهم حينئذ ، وقعـــدوا من علمائها في قرطبة ومدن الأندلـــس وصقلية مقعد التلاميذ مـــن أســـاتذتهم العظام، حتى في علم اللاهوت وكـــان لكتابات فيلسوف قرطبة ابن رشد فيـــه أثر عميق في قيام حركـــة التحريـــر والإصـــلاح الدينـــي فـــي النهضـــة الأوربية .

ويقول المستشرق الإيطـــالي ألدوميلى : " تُرْجمت كل كتب علمـــاء العرب الكبار إلى اللاتينية في القرنيـن الحادي عشر والثاني عشر للميـــلاد" . وقد استوعبها الأوربيـــون وتمثلوهـــا وأسســـوا عليـــها نهضتـــهم العلميـــة الحديثة، وشاهد واضـــح يقـــوم فـــي عصرنا على تمثـــل أوربـــا للعلـــوم العربية هو الأرقام الحسابية العربيـــة التي اقترضتها أوربـــا مـــن البلـــدان المغربيـــة وتداولـــها ســـكان البـــلاد الأوربية ولا يزالون يتداولونـــها إلـــى اليوم في البنـــوك وغـــير البنـــوك ، ومعنى ذلك كله أن الفصحـــى أثـــرت بعلومها وحضارتها تأثيرا عميقا فـــي العالم المسيحي بأوربا ، كما أثرت في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا .

وأخذت تعايش الفصحى فـــي جميع الأقطار العربية عاميـــاتٌ كـــان

السبب في تكونها فقدانـــها للإعــراب الذي تتميز به الفصحى، إذ كان سكان الأقطار العربية وراء الجزيرة العربية لا يعرفونه في لغاتهم القديمة، وأيضـــا فإن كل قطر احتفظ ببعض ألفاظ كانت تدور في لسانه بلغته القديمـــة ، كمـــا احتفظ ببعض نغمات فـــي النطـــق ، وهى تختلف من قطـــر إلـــى قطـــر ، وبمرور الزمـــن أخـــذت العاميـــات العربية تتكون على ألسنة السكان فـــي جميع البلدان التي فتحها العرب مـــن إيران شرقا إلى المحيط الأطلنطـــي ، وكانت تَرْمُقُ شعر الفصحى بإعجاب، وتتمنى لـــو اســـتطاعت محاكاتـــه، وبمرور القرون استطاعت أن تنتج لها شعرا عاميا يُسمَّى الأزجال ، واشـــتهر في نظمه ابـــن قزمـــان الأندلســـي ، وحاكته فيه الأقطار العربية جميعـــا ، وبمرور القرون أيضا أخذت العاميـــة تسهم فـــي كتـــب النـــوادر ، وهـــى أقاصيص قصيرة تروِّح عـــن النفـــس بالسخرية من قاض مشـــوَّش الفكـــر يخطئ في أحكامه،أو حاكم ظالم يجور في أحكامه جوراً شديدا، ومن أطرف ما ساهمت فيه العامية من تلك الكتـــب كتاب الفاشوش فـــي حكـــم قراقـــوش التركي أحـــد قـــواد صـــلاح الديـــن الأيوبي، وكان أنابه عنه فترة بمصـــر وفوَّض أمورها في الحكم إليه لغيبتـــه عنـــها فـــي حروبـــه بالشـــام ضـــد الصليبيين، وهو الذي بنى السور الذي كان محيطا بالقاهرة، كما بنى القلعـــة التي لا تزال قائمة إلى اليوم، ويبـــدو أنه قسا قسوة شـــديدة فـــي تســـخير المصريين في بنائهما، فانتقم منه أحـــد كتاب الدواوين المصرية المسمَّى ابـــن مماتي فألف كتابًا عاميًّا وضع عليـــه فيه طائفة من النـــوادر فـــي أحكامـــه مصوراً فيها ما ادَّعاه عليه من غفلتـــه وحُمْقه ، وهو مطبوع ومنشور ،

و نلتقي في مطلع عصـــر المماليك بمصر بكاتب مبدع من كتاب العاميـــة هو ابن دانيال ، وكان شاعرًا، وكـــان كحالا، ولا ندرى هـــل كـــان طبيـــب عيـــون أو كان تاجـــر كحـــــل يبيـــــعه فقط، وسأله ســـائل عـــن

حرفته التي يكتسب منـــها معاشـــه ، وأغلب الظن أنه كان طبيب عيـــون، فقال :

ما حالُ مَنْ درهمُ إنفاقهِ
يأخذه من أعين الناس

والتورية في الشطر الثاني واضحـــة ، وهى صيغة تدور على ألسنة العامـــة بمصر إذ يقولون عن الشخص الـــذي يأخذ حقه من شخص آخر إنه أخـــذه من عينه أي رغم أنفه ، وهو لا يريـد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعتـــه ٠

وقد ألف بالعامية ثـــلاث مســـرحيات نثرية شعرية كانت تمثل فـــي عـــهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـــ) على مسرح خيال الظل ، وهو مسـرح دمى متحركة متحاورة ، واسم أولاهـا " طيف الخيال " واسم الثانية عجيـــب وغريب ، وهى تصور سوقا مصريـــة ومن فيها من أخلاط الشـــعوب وقـد جمدت ألسنتهم عند لهجات شـــعوبهم الوطنية بكلام يثـــير الضحـــك فـــي النظارة٠ واسم التمثيلية الثالثة " متيـــم"

وهى تعرض طائفة من حِيَل العُشَّـــاق في صور مضحكة .

والتمثيليات الثلاث عند ابـــن دانيـــال مؤلفة بنثر عامى مسجوع محاكاة للنثر في رسائل الفصحى الديوانيـــة منـــذ عصر ابن العميد، إذ أخذ يعـــمُّ فيـــه السجع، وعمَّ في العصر الأيوبى عنـــد العماد الأصبهانى في كتاباته التاريخية كما في كتابه" الفيح القسّى في الفتـــح القدسى" الذى يصـــف فيـــه انتصـــار صلاح الدين على حملة الصليب وأخذ بيت المقدس من أيديهم بعد تمزيقـــهم تمزيقًا شديدًا٠ وحقَّـــق ابـــن دانيـــال للعامية محاكاتها فـــي تمثيلياتـــه لأدب الفصحى الذى شاع فيه السجع شـــيوعًا كبيرًا ٠

ونقف قليلا عند تمثيلية ابن دانيال المسماة "طيف الخيال" وهـــى تـــدور حول مشكلة الخاطبة فـــي العضـــور السابقة وما كان ينشأ عـــن وصفـــها للعروسين مـــن أغـــلاط فـــي تبيـــن حقائقهما، إذ تُقَدِّم العريس على أنه من

أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيفان، وحقيقته أنه أحدب فقير لا يملك شَرْوَى نقير، وتقدم العروس على أنها فتاة جميلة، وحقيقتها أنها عجوز قبيحة، ويُزَفَّان، وتكشف عن وجهها في الزفاف، ويصيبه الذهول، وينادى على الخاطبة وتأتيه، ويشكو منها، كما يشكو شكوى مرة من زوجته التى يُزَفُّ إليها، والتمثيلية مليئة بالمواقف المتناقضة المضحكة ، مع تصويرها لجوانب من الحياة المصرية الاجتماعية والسياسية في عهد الظاهر بيبرس.

وتأخذ مصر في تأليف سير شعبية للبطولة العربية بلغتها العامية تحميسا للشعب المصرى في حروبه البطولية ضد الصليبين والمغول أو التتار ، وربما كان أول هذه السير البطولية سيرة عنترة بطل قبيلة عبس في الجاهلية ، ويقال إن أول كتابتها كان في عهد الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ) كما يقال إن ريبة حدثت في قصره ، وشاع الحديث عنها بين أهل القاهرة ، فأراد أن يصرفهم بسيرة تشغلهم عن الكلام فيها، فكلف بذلك أديبًا يسمى يوسف ابن إسماعيل فألف سيرة عنترة وشغل بها سكان القاهرة. وهذا الخبر- إن صح - إنما يشير إلى أول ما كان من وضع هذه السيرة، إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى القرن السادس الهجرى وحروب الصليبيين وحتى بلغت اثنين وثلاثين جزءًا، وهى منشورة في أربعة مجلدات ، وألفت تأليفا قصصيًّا جذابًا بحيث يقتطع الكلام في كل جزء عند حادث مهم ، ويشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذى يليه . وساحات بطولات عنترة لا تقف عند العصر الجاهلى بل تمتد في الزمان حتى نهاية القرن الخامس الهجرى، كما تمتد في المكان ، فتشمل الحبشة والسودان وإيران والشام وشمال إفريقيا ومصر وجنوب أوربا : وهى ملحمة بديعة مثَّل فيها عنترة البطولة العربية على مر التاريخ حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ومثل معها

فضائلها التى أعجب بها الصليبيون ونقلوها إلى ديارهم ، وهى مكتظة بأحلام وأساطير وخوارق كثيرة ٠

ومن سير البطولة التى ألِّفت بمصر في العصور الماضية والتى لا يزال يشغف بها المصريون وخاصة قُراهم سيرة الهلالية ، وكانت قبائل قيسية متعددة من نجد منها بنو هلال وبنو زغبة نزلت بصحراء مصر الشرقية ، وحدث أن خرج على الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧- ٤٨٦هـ) المعز بن باديس الصنهاجى حاكم تونس والقيروان سنة ٤٤٣ للهجرة،وغضب لذلك غضبًا شديدًا فأشار عليه وزيره اليازورى أن يسلط على المعز القبائل القيسية النازلة بالصحراء الشرقية ، فاتصل بهم وحبَّب إليهم الهجرة إلى البلاد المغربية ، ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ما تجت يد المعز إقطاعًا لهم وبالمثل كل ما يستولون عليه من البلاد المغربية، ولبَّته جموعهم، وأخذت تنازل حكام تلك البلاد ومَن معهم من الجنود٠ واستولوا على برقة فى سنة ٤٤٣ للهجرة واستولى بنو زغبة على طرابلس ، واتجه بنو هلال مع بطلهم أبى زيد إلى تونس ، وناصرتهم بنو زغبة وبطلها دياب بن غانم ، ونازلهم المعز بن باديس وهزموه ، فترك لهم تونس والقيروان ، واكتفى بالمهدية ، وتحولت إمارة تونس إلى إقطاعات صغيرة يحكمها عرب من بنى هلال وغيرهم ، وبالمثل توزعوا الجزائر وجعل القصاص الذين وضعوها أبا زيد الهلالى ودياب بن غانم بطلين عربيين وجعلوا خصمهما فى قبيلة زناتة المغربية الزناتىخليفة ٠ وهذه الهجرة العربية الكبيرة إلى البلاد المغربية إن كانت ملأتها حروبا فإنها أتمت تعريبها بحيث أصبحت أمة أو أمما عربية كبيرة٠وكانت السيرة-إلى عهد قريب - ينشدها شعراء على الربابة فى مقاهى المدن وفى أعراس

القرى المصرية، وتبدو الوقائع فى هذه السيرة وأسماء أبطالها كأنها أضغاث أحلام لبعد القاص المصرى عن ساحات أحداثها .

ومن سير البطولة سيرة السلطان المملوكى الظاهر بيبرس هازم التتار فى موقعة عين جالوت ومتعقبهم حتى شمال العراق،وأيامه تُعَدّ أزهى أيام مصر زمن المماليك فكان طبيعيا أن توضع لبطولاته قصة تصورها، ولغتها عامية مثل الهلالية، والنثر يغلب فيها بينما يغلب الشعر فى الهلالية ، وتَمُدّ السيرة ساحات بطولاته إلى أوربا ، وتعرض أعماله وإخضاعه فى سوريا الفدائيين الحشاشين المعروفين بكثرة اغتيالاتهم منذ زعيمهم الحسن الصياح، ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية وإبراهيم الحورانى وتصف رحلته إلى روما، ويبدو أن السيرة لم تكتب فى زمن قريب من زمن الظاهر، لأن الأحداث التاريخية فيها وأسماء الأبطال يشوبها غير قليل من الخيال ، وتكثر فيها الأعمال الخارقة،

وحرى بى أن أذكر أن كتاب ألف ليلة وليلة صاغته مصر بلغتها العامية وانتشر منذ القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى فى العالمين العربى والغربى ، ووضع فيه القصاص المصريون أقاصيص كثيرة بعاميتهم مثل أقصوصة علاء الدين ، والمصباح العجيب، وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية، ودليلة المحتالة، وعلى الزيبق، وزينب النصابة، ومعروف الإسكافى .

وإنما ذكرت كل هذه الأعمال لأدل على ضخامة تراث الأدب العامى فى العصور الوسطى ، وكل سير البطولة لم تدرس ، ووراء ما ذكرت منها سير مثلها لم تدرس مثل سيرة سيف بن ذى يزن التى تصور الصراع بين العرب والحبش فى أواخر العصر الجاهلى، وعلى رفوف دار الكتب المصرية مالا يكاد يحصى من قصص عامية شعبية كتبت فى العصور الوسطى ، وهى فى حاجة إلى أن

تحقق وتنشر ٠

وأخذ الأدب فى الفصحى يتطور فى القرن التاسع عشر من لغة رفاعة الطهطاوى التى تعتمد على السجع ومحسنات البديع إلى لغة متحررة منهما تعتمد على التعبير المرسل الحر الطليق٠ ولا نتقدم بعد منتصف القرن الماضى طويلا حتى تتكاثر عندنا الصحف ، وحتى تنشأ معها لغة ثالثة وسطى بين الفصحى والعامية ، لغة فصيحة مبسطة ، لا تنزل إلى مستوى الابتذال العامى ، ولا تعلو على العامة بحيث يفهمونها دون أى عُسْرٍ أو مشقة ، لغة بسيطة سهلة يخاطبون بها طبقات الأمة ، ولا تميز بين طبقة وطبقة ، بل ربما كان اهتمامها بالطبقات الدنيا يزيد على اهتمامها بالطبقات العليا فى الشعب ، إذ تريد أن تنتشر بين جماهيره٠ وقد هجرت موضوعات أدبنا القديمة من تهنئة وتعزية إلى غير ذلك، فإنها لا تكتب للأفراد، وإنما تكتب للأمة، وتعرض ما يهمها من شؤونها السياسية، وتنادى بالإصلاح فى الأداة الحكومية، وتتناول كل ما تريد الأمة من موضوعات سياسية ودينية واجتماعية٠ وبينما الأدب فى الفصحى بالقرن الماضى يتطور فى موضوعاته وفى لغته عن طريق الصحافة إذا بجماعة من الإنجليز والمستشرقين في أواخر القرن الماضى تثور على الفصحى ثورة عنيفة مناديه فى محاضرات وكتابات بأن واجب المصريين أن يتحرروا ويتخلصوا فى أدبهم من الفصحى ويتمسكوا فيه باللغة العامية٠ وكانت هذه أول خصومة عنيفة تحدث فى مصر بين الفصحى والعامية٠

وشعر الشعب المصرى وأدباؤه بما فى هذه الدعوة من خطر يريده الإنجليز ، حتى تنْسى الأمة المصرية ماضيها العربى والإسلامى، وحتى تنسى عروبتها المقدسة وارتباطها بالفصحى لغة القرآن الكريم والحديث

الشريف، وحتى تنسى صلاتها بشعوب الأمة العربية، وحتى تنسى هويتها وشخصيتها العربية الإسلامية والتاريخية . ولهذه الأسباب مجتمعة أخفقت في أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر هذه الدعوة المغرضة ، ولم يهتم بها أى اهتمام أصحاب الأدب العامى عندنا ، ومضوا ينشطون في نظم الأزجال ونشر الصحف الفكاهية، ثم فيما بعد في تأليف القصص العامى.

ومضى أدبنا المصرى في الفصحى يتطور في القرن العشرين تطوراً خصبًا، محاولا أن يستوعب ثلاثة فنون كانت شائعة في الأدب الغربى، وهى المقالة والقصة الطويلة والمسرحية - والمقالة فن نثرى صحفى قلما يتجاوز نهرًا أو نهرين في الصحيفة ، وقد أنشأتها عند الغربيين - كما أنشأتها عندنا - ضرورات الحياة الصحفية، وما يريد الصحفيون أن يتحدثوا فيه إلى جماهير الأمة من شؤون المجتمع والسياسة. وينبغ في هذا الفن بالربع الأول من القرن الحاضر غير كاتب ويتقدم كتابها مصطفى لطفى المنفلوطى الذى اشتهر بمقالاته الاجتماعية وما بثّ فيها من معانى الرحمة والفضيلة والعطف على البؤساء. وتنشط المقالة السياسية عند مصطفى كامل وما يريد للأمة المصرية من انتزاع حقوقها المسلوبة من أيدى الإنجليز الغاصبين. وتزدهر المقالة السياسية بعد نشوء الأحزاب في العقد الثالث من القرن. وتصطفى الأحزاب لصحفها اليومية كُتَّابا ممتازين ، وتلحق بصحفها مجلات أدبية أسبوعية، وتتألق أسماء أربعة من الكتاب هم محمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد، وطه حسين، وإبراهيم عبد القادر المازنى، ويكتبون مقالات طريفة عن الآداب الغربية في المجلات الأسبوعية والشهرية وتظل للأربعة زعامة نهضتنا الأدبية، حتى قيام ثورتنا الحاضرة.

ولا يزال أدباؤنا الصحفيون والناشئون يرددّون أسماءهم وأعمالهم الأدبية - مع التجلَّة - إلى اليوم.

وفي أدب الفصحى الماضى قصص كثير عن أيام العرب وحروبهم ، وعن الأنبياء ومن أرسلوا إليهم ، وعن الحب والمحبين. ودخل الفصحى في العصر العباسى لونان من القصص، وهما القصص عن الحيوان والطير كما في كتاب كليلة ودمنة، والقصص عن الإنسان كما في كتاب ألف ليلة وليلة، غير أن كل ذلك يختلف عن القصة الغربية الطويلة المعروفة عند الغربيين بشخوصها وتقاليدها الأدبية . وحاول الأدباء المصريون في القرن الماضى ترجمة بعض فرائدها وآثروا تمصيرها حتى تقترب من ذوق القراء ، وظل هذا التمصير حتى زمن المنفلوطى وشارك فيه كما نعرف عن القصتين : ماجدولين والفضيلة . وأخذ شباب المصريين - من حينئذ - يعنى بتأليف القصة الطويلة على النمط الأوربى، على نحو ما ألف محمد حسين هيكل قصته الطويلة: زينب.

ويتعدد بعد الحرب الأولى في القرن من يكتبون القصة الطويلة على النمط الأوربى وفي مقدمتهم إبراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد وطه حسين. ويُعْنَى المازنى بالجانب النفسى في شخصيات قصصه، مع تحليل واسع لما يضطربون فيه من مشاعر وأحاسيس. وللعقاد قصة طويلة سماها " سارة" وهو فيها يعنى بالتحليل النفسى مثل المازنى ويضيف إليه تحليلاً عقليًّا واسعًا. أما طه حسين فقصصه اجتماعية ويعنى في أكثرها بتصوير الحياة في المجتمع المصرى. وانضمَّ إلى هذه الكوكبة محمود تيمور، وكان يكتب قصصا بالعامية، فرأى أن يعيد كتابتها بالفصحى، وفي ذلك دليل ساطع على أن الفصحى ظل لها التفوق والسيطرة على الحياة

الأدبية المصرية حتى القرن العشرين، وكان يعنى في قصصه الاجتماعي بتصوير عيوب المجتمع المصرى، ونمضى في النصف الثانى من القرن مع ثورتنا المصرية، وينضم إلى هذه الكوكبة المبدعة يحيى حقى بقصصه الفصيح الرائع ويتكاثر مَنْ يكتبون القصة الطويلة بالعامية لأنها أكثر طواعية لهم. ومن حين إلى حين يندد بالفصحى بعض من لا يحبونها ويقولون : دعونا نتخذ العامية لغة لأدبنا ، وكأنهم لا يعرفون شيئا عن تاريخ الفصحى المجيد وكيف أنها ظلت لغة عالمية منتشرة قرونًا طويلة من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلنطى وكيف أنها انتصرت بقرآنها وبيانه الرائع على كل ما صادفها من لغات، فقد ظفرت بالفارسية في عقر دارها وبالسريانية واليونانية واللاتينية والديموتيقية والبربرية والرومانثية الإسبانية ، وأكبت عليها شعوب قارات ثلاث تتعلمها وأضاءت لأوربا مسالكها إلى حضارتها الحديثة، وأنها لا تزال في هذا العصر تضم الفم إلى الفم في الديار العربية والروح إلى الروح والفكر إلى الفكر جاعلة من عرب مصر والعرب في كل مكان أمة واحدة مترابطة ، لا تنفصم عروة الترابط بينها وبين شعب من شعوبها أبدا. وإذا كانت القصة الطويلة حظيت في النصف الأول من القرن الحاضر بخمسة من كتاب مصر الكبار هم : المازنى والعقاد ومحمد حسين هيكل وطه حسين ومحمود تيمور، فإنها حظيت في النصف الثانى من القرن بيحيى حقى وبكاتب مصرى كبير هو نجيب محفوظ الذى خطا بالقصة الطويلة خطوات كبرى جعلتها تضارع مثيلتها الأوربية، ولا أبالغ إذا قلت إنه كتب بالفصحى أروع قصص طويلة نشرت بمصر في القرن العشرين ، وإنَّ ظفرَ الفصحى عنده بجائزة نوبل كان حريًّا أن يلفت دعاة العامية إلى خطئهم في تقدير بيانها وقيمها الجمالية الخالدة.

ومنذ أنشأ الخديوى إسماعيل في

القرن الماضى دار الأوبـــرا أخـــذت مصـــر تعـــرف فكـــرة المســـــرح والمســـارح، وخاصـــة أن يعقـــوب صنوع أنشأ في القاهرة مسرحًا كـانت تمثل عليه بالعامية مسرحيات فرنســية مترجمة ممصرة. وأقبلـــت علـــى مصر فرق تمثيلية ســـورية ولبنانيـــة كانت تمثل في الإسكندرية والقـــاهرة مسرحيات فرنسية أيضا باللغة العاميـة مترجمة وممصـــرة، وتكونـــت فـــي التمثيل مع هذه الفرق فرق مصريـــة، وكوَّن بعض الهواة المصريين فـــي العقد الثانى من القرن الحاضر جمعيـة لتأليف الروايات المسرحية، واشـــتهر من بين أعضائـــها إبراهيـــم رمـــزى وفرح أنطون بما ألَّفـــا من مسـرحيات فصيحة، وينشط في العقد الثالث مـــن القرن التمثيل الهزلى والغنـــائى.وفي أوائل الثلاثينيات من القرن في العقـد الثالث ينشطُ التمثيل الهزلى والغنائى. وفي أوائل الثلاثينيـــات مـــن القـــرن الحاضر ينهض التأليف المسرحي فـــى

الشعر عند شوقي بمسرحياته الســـبع المشهورة ، وكانت العامية تطغى على المسرح المصـــرى، فمُثِّلـــت عليـــه مسرحيات شوقي الشعرية الفصيحـــة ولقيت نجاحًا منقطع النظير ، وتبعـــه عزيز أباظـــة بمســـرحياته الشـــعرية المكتوبة بـــالفصحى، وبذلـــك توطَّـــد المسرح الشعرى الفصيح، وإن كان لم يخلفهما فى النصف الثانى من القـــرن شاعر فصيح من نفس الطراز.

وفى الثلاثينيات من القرن أيضـــا أهدت الفصحى إلـــى مصـــر كاتبًـــا مسرحيًا مبدعًا، هو توفيق الحكيم الذى تعرَّف فى فرنســـا - بدقـــة - علـــى أصول التمثيل وتقاليده عند الإغريـــق والفرنســـيين. وفجـــأ المصريـــين بمسرحيته" أهل الكهف " وهم ســـبعة ماتوا فى كهف وظلوا فيه نحو ثلاثمئة سنة ، وبعثوا ، وجعل لـــهم الحكيـــم مغامرات بناها على صراع عنيف بين الإنسان والزمان . ولم يلبث أن تلاها بمسرحيته " شهرزاد " ومثَّل فى بطلها

" شهريار " الصراع بين الإنسان والمكان . وتتوالى مسرحياته مستمدة من الأساطير الإغريقية تارة ، ومصورة مشاكلنا الاجتماعية والسياسية تارة ثانية ، وله في مسرحياته فلسفة يستمدها من الشرق وروحه وسيطرة القضاء والقوى الغيبية ، وبمسرحياته وفلسفته فيها أوجد لمصر مسرحًا مصريًّا متميزًا بالقياس إلى المسارح الغربية القديمة والحديثة ،وبذلك وظَّف توفيق الحكيم فن التمثيل في الفصحى وجعله فنًّا مصريًّا كما وظَّف نجيب محفوظ فيها فن القصة الطويلة وجعله فنًّا مصريًّا .

ولابد أن نعرف أن الفصحى لغة أدبنا الرفيع على مر العصور،وأن العامية بأزجالها وقصصها إنما هي في جمهور ألفاظها فصحى محرفة ، والعامية- لذلك- في حاجة إلى أن تعنى المجامع اللغوية في البلاد العربية بدراسة ما داخل ألفاظها من تحريفات وردها إلى أصولها الفصيحة على نحو ما يصنع المجمع اللغوي القاهري . وبذلك تقترب العامية من الفصحى تدريجا في جميع ديارنا العربية، وكلنا نعرف أن الفصحى لغة العلم الذى تتعلمه الناشئة والشباب في المدارس في الكليات الجامعية ، ولغة كل ما نقلناه عن الغرب من الآداب والفكر والعلوم الإنسانية والعلوم العلمية الخالصة والقانون والفلسفة، ولغة الصحف التى تقرؤها الملايين منا يوميًّا، وللفصحى عبقرة من الأدباء والعلماء على مر تاريخها الطويل يفوقون العدَّ والحصر، ولها شعراء وكتَّاب مصريون عظام في القرن العشرين أتاحوا لمصر الزعامة الأدبية بين الشعوب العربية.والفصحى لغة القرآن الكريم الخالدة بخلوده،وهى اللغة القومية التى تربط بين مصر والبلاد العربية بحيث يمكن أن يحدث تكتل عربي سياسي أمام تكتلات الأمم الأوربية السياسية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شوقي ضيف

رئيس المجمع